قصة قصيرة

الموت في حضن الحبيب

عماد الدين *

شابة مطلقة لا يغلب عليها النوم من شدة الاشتياق إلى فلذة كبدها، الذي تتذكره وتذرف على ذكراه. لقد مضت سنوات على فراقه ولكنه لا يزال يخفق في قلبها، ويستحوذ على شعورها وخيالها. تحس "ذاره" في داخلها بألم يحرق ضلوعها، وهي مضطجعة على سريرها/ وتعتزم أن تستمتع بليلتها الأخيرة مع قصائده التي أهداها إليها قائلاً:

- "هذا كلامي يصاحبك عندما تشعرين بوحشة وغربة"

ومع كأس قهوة، لم تتجرع منها إلا جرعة واحدة أو جرعتين، توقفت وتوجهت إلى دولابها فأخذت منه رسالة وقميصاً أسود، ثم بدأت تقرأ تلك الرسالة، وتقبل ذلك القميص وتعانقه عناقاً حاراً، وتنسكب العبرات على الكلمات فتمحوها شيئاً فشيئاً، لتغمضَ عينيها الحمراوين من كثرة الأرق .

قبل سنة...

يرن هاتف عباس برقم غير معروف فيرد.

-:هالو.. من؟

-:محوت اسمي من هاتفك يا عباس؟!

-:لم أفهم، من تكونين؟

تقول وتظهر الحسرة في كلامها

-:نسيتني بهذه السرعة!؟

---

* الطالب في الماجستير، الجامعة العالية، كولكاتا، غرب البنغال

فلما عرف الصوت تحركت عواطفه، وظل ساكتاً لهنيهة، ثم عاد إلى حاله قائلاً بصوت خافت

-:جارة؟.....

-:إذن لم أندرس من ذاتك كلياً !

يقول ويكاد الكلام يغص بحلقه وهو يتصنع البسمة والدمع يملأ حدقتيه، والشعور يلذع أحشاءه في داخله

-: ما دفعك إليَّ بعد مدة؟

-: أردت الاطلاع على حالك فحسب....

لا يدري عباس ماذا يقول!؟ فالآلام تنتابه وتتراكم في داخله وتنهش قلبه ولا تنقطع عنه الدموع. أوقف المايك وبقي واجماً بضع ثوان، ثم قال وهو يتصنع الضحك رغم علامة التحسر البادية في صوته:

-: الحمد لله على ما يرام

-: ألا تسأل عني؟

-: كنت أوشك!

-: كيف أنتم جميعاً؟

تجاهلت "ذارة" هذا السؤال ولم تعد تتصنع الضحك والسعادة كعباس فانفجرت باكية وهو أيضاً يذرف من جانب ولكنه يستر بضحكة فقال عباس متعجباً:

-: ما يبكيك يا ذارة؟

تقول ضاحكة وهي تشرق بالدموع

-: لا شيء... فقط اعترت الذكريات وأثارت الخوالج

فساد الوجوم بينهما بضع ثوان حتى عادت ذارة قائلة

-:عندي سؤال لك يا عباس؟

-:لا مشكلة

-:ألا يحدو بك الشوق إلي ؟

بقي واجماً ولم يعد قادراً على الإجابة والتكلم فأوقف المايك وجلس شاهقاً ثم قطع الاتصال وظل يتناسى إلى أن زال عنه الشوق .

قبل سنوات من هذه المكالمة....

يزور عباس قبر أمه في كل عيد ميلادها ويصوم ويطعم الفقراء. تبدلت علاقة الصداقة بعلاقة الحب الوطيدة بينهما يوم غادرته أمه إلى ربها حيث أتته صديقة طفولته ذارة لتواسيه بينما كان شديد الحزن ومكفهر الوجه ومغلوب الحال وضيق الصدر وعديم الحيوية فقالت له وهي تمسح على رأسه وتشاركه في الدموع

-:سنعود جميعاً إلى الله عاجلاً أو آجلاً إذا حل القضاء

يقول عباس شاخصاً إلى السماء والدمع يقطر من مآقه

-:ما بقي أحد في حياتي إلا أختي وعسى ألا تفارقني أيضاً إلى بيت آخر

سكت هنيهة، فظل يقول شاهقاً وهو يستر وجهه بكفيه

-:قبل سنتين حملت جثة أبي على كتفي وها اليوم جثة أمي فلذة كبدي، أتعرفين يا ذارة إن هذا القدر لقسوة إذا شاء جمعك مع الأحباب وإذا شاء باعدك عنهم.

وهي أيضاً تتفجر بكاءً وتشعر بألم عباس، فتقول وهي تعده

-:أعدك بأني لن أفارقك

-:لا تلفظي ما ليس بوسعك يا ذارة

قالت له وهي تخرج من كيسها صندوق الطعام

-:ها تناول لقمة من الطعام

-:أريد أن أنام قليلاً

لم تجبره وأسكنت رأسه على حضنها فنام فيه نوم الطفل وظلت تمسح على رأسه إلى أن أخذتها السنة فوضعت رأسها على رأسه وغابت في هجعة خفيفة.

رن هاتف ذارة فانتبهت وأجابت قائلة

-:نعم قل يا أبي...

-:ها قد حان وقت العشاء..... لا تتأخري

-:لا أتأخر

لم يسأل والدها عن عباس وحاله، وهو عمه من بعيد، ودائماً ينظر إليهم نظرة الاحتقار لأنه يقيسهم بمعيار الطبقة المالية وليس الإنسانية. لولا هذا لوجدهم أفضل جيراناً وهو يكره منذ البداية أن تصاحبه ابنته "ذارة"وتجالسه وتلاعبه لأنه لا يراه كفواً لها ولأنه يرى بوناً واسعاً بينه وبين أهل عباس من جهة المال والثروة ولكن صداقتهما جازوت هذه الحدود المادية وغلبت عليها عواطف الحب القوية والعلاقة الوطيدة التي ارتقت بينهما شيئاً فشيئاً منذ الطفولة إلى الساعة فيزور أحدهما الآخر كل يوم وكل منهما شريك للآخر في كل صعب وذلول وكل منهما سلوان وعضد للآخر والعلاقة بينهما تكاملية.

مر شهر على وفاة أم عباس ولم تتركه ذارهْ وحيداً حتى ليوم واحد. كانت كل يوم تزوره بالطعام، له ولأخته شبنم التي كانت تحب ذارهْ حباً جماً لخلقها الكريم وصفاتها العالية وجمالها الخلاب، وكانت ترجو أن تكون زوجة لأخيها ويوماً قد أظهرت هذه الرغبة عند أخيها قائلة

-:لا نظير لأختي ذارهْ في هذه الدنيا

-:نعم صح لسانك يا أختي شبنم

-:إنها تفعل لنا كثيراً على الرغم من أبيها

فسكت عباس ولم يرد على هذا فظلت تقول

-:لإن شئتَ تحدثتُ معها

-:عما تتحدثين؟

تقول وهي تتردد خوفاً على رد فعله

-:أعني اقترحتُ عليها بالزواج منك

فقال بصوت خافت

-:ويحك!أجننت؟ لئن سمعت هذا ستسيء ظنها بنا!

-:لماذا؟ هي تحبك حباً لا مثيل له

-:تحبني حب الصديق يا شبنم

-:وماذا عنك؟ ألا تحبها حب الحبيب؟

-:دعك عن هذا يا شبنم

تقول وتدمع عيناها

-:مذ فارقني أبي ثم أمي تكاد تخنقني الوحشة كل ليلة فلا يحلو لي النوم ولا الأرق.

هز كلامها عواطف عباس بعنف، وبدأ يتألم في داخله ألماً شديداً لا يظهر فعانق أخته الوحيدة شبنم وقال مبتسماً والدمع يتلألأ في مقلتيه .

-:ألست معك؟

-:ما أردت أن أجرحك يا أخي ولكني أردت أن يزول عن بيتنا ثوب الحداد وطيب الحنوط ويمتلئ بالفرح والمسك

-:وماذا أردت؟

-:أردت أن تتزوج من ذارة

-:هذا مستحيل يا شبنم

-:ولماذا؟

-:أنظري إلى معاشهم ومعاشنا،هذا من حسن حظنا أنها تشفق علينا وتصاحبنا دون أن تميز الطبقة بيننا وإلا ليس لنا قدر ولا قيمة في هذا المجتمع

-:لأنها تحبك يا أخي تحبك، ألن تعقل؟

لم يواصل عباس المحادثة، ودخل غرفته فأخذ القلم ومذكرته ثم قصد إلى سقف البيت وبدأ يكتب ما يكتب...

أتته ذارة وهو يشخص إلى السماء مكتئب الوجه فنادته من خلفه

-:ماذا يفعل هنا عزيز قلبي وحيداً؟

حاول أن يواري عبراته قائلاً

-:لا شيء

-:ثم....؟

-:ثم ماذا؟

تقول مبتسمة دون تردد

:هل تعرف أنك أعز من حياتي وأقرب إلى قلبي

-:نعم

-:فلماذا تفر عن اقتراح شبنم؟

فوجئ عباس بهذا فقالت له

-:لا تندهش،كنت آتيك إذ سمعت المحادثة بينكما

-:أرجو أن لا تسيئ بنا ظنك إنها لا تزال صغيرة أن تعقل ولذلك

-:بل هي أعقل منك

ثم ظلت تقول

-:أنا وأنت منذ عهد التصابي نترافق ونتشارك في كل شيء ولم تفهم بعد مرام حياتي وكلام فؤادي!

-:لست بكفئك يا ذارة

-:ومن قال لك هذا ؟

-:أعاين هذا بهاتين العينين

-:منذ متى بدأت تنظر إلى علاقتنا بنظرة أبي؟ إن هذه العلاقة يا عباس فوق هذه الأمور المادية التافهة المزيفة.

لم يستطع الإجابة وظلت تقول

-:حبنا أزلي يا عباس وأرواحنا تعارفت وتجانست قبل تعارف الأجسام هكذا خلقنا فلا فائدة في الفرار فإنها تعرف صاحبها وتفر إليها وترجع من غيرها مهما نحاول

وظلت تقول

-:حياتنا مربوطة برباط واحد إذا انفك هذا الرباط، لن تدوم

فقال والدمع ينسكب من عينيه

-:أتحبينني إلى هذا الحد؟

تقول وتذرف

-:بل أحبك فوق هذا الحد

فضمها إلى صدره .

حبهما ليس حباً شهوانياً فحسب يقل وينقص مع نقصان الشهوات ولكنه يزداد مع مرور الوقت كما يزداد شوق أحد إلى الآخر.يملك الحب قلب كل منهما فلا يمكن لأحد أن يفر عن الآخر ومهما يحاول عباس أن يبتعد عن ذارة ولكنه عاجز لأنها تستحوذ على قلبه وعقله ولكن لماذا يحاول الفرار؟

كلما يتذكر أباها وأقواله اللاذعة كلما يريد الهروب منها ولكن حبها يمنعه،لكم جرحه لسان أبيها فيوماً قال له

-: كيف تقضي حاجتكم بهذا المبلغ البسيط؟

فقال له عباس بلباقة

-: برحمة الله وبركاته

فقال في حدة وهو يستخف به ويسخر من قوله

-: ويحكم! لا يواري فقركم مثل هذا الكلام، أنتم من أراذل المجتمع .

قد سبق أنه مجروح القلب وكلامه هذا قد زاد سعة في جرحه فكل كلام كان يرمي به كلهيب يكوي أضلاعه ويلذع قلبه أو كنصل يخز جرحه الذي لم يلتئم بعد. وذارة هي ابنته الوحيدة ذات الرونق والبهاء وأبوها من أثرياء المحلة ومن أقرباء عباس ولكن سلوكه مع عباس يبعد كل البعد عن مودة القرابة واحترامها أما عباس فلم يفكر في هتك عرضه قط ولم يرفع صوته على هذا الكلام الجارح بل تحمله وصبر عليه وربما ذاك لعزيزة قلبه ذارة فقط.

وبعد مشقة طويلة وجد عباس لأخته العزيزة شبنم عريساً وهو موظف حكومي فزوجها منه وقد ندر أن يوجد في هذا العصر هذا النوع من الفتيان حيث تكافح البلاد الأزمة الاقتصادية وعباس نفسه لا يزال يبحث عن وظيفة حكومية وكان أثناء دراسته في المدرسة والجامعة طالباً للمستوى الأعلى وهو يعمل في شركة صغيرة بمبلغ بسيط يسد به جوعه ويقضي به حاجته. بقي عباس وحيداً في بيته منفرداً بذكرى والديه وأخته شبنم فأحياناً في جنح الليل يركض نحو قبرهما من شدة الاشتياق.

-:عباس...عباس

تناديه ذارة من خارج بيته

فتح الباب وقال

-:أدخلي يا ذارة

-:ها قد أتيت بأطباقك الأثيرة

لم يكن قد تناول عشاءه بعد ولكنه يكذب قائلاً

-:الله الله قد امتلأ بطني طعاماً يا جارة !

-:حقاً؟

-:نعم

تسللت على حين غرة إلى المطبخ لتتأكد فلم تجد في أي إناء أثر الطعام المطبوخ ولا الإدام ولا الأرز ففهمت أنه يكذب فقالت وهي تتصنع عدم الاطلاع على كذبه

-:لا بأس! تناول فيما بعد.

فانصرفت ذارة ثم عادت وتسترق النظر من نافذة بحيث لا يشعر بها عباس فرأته وهو يأكل أكل الجائع شديد الجوع فانهالت من عينيها دموع الشفقة والرحمة.

مر يومان ولم تأته ذارة فبدأ يشتاق إليها بشدة وحاول الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق. قصد إلى بيتها فوجده مقفولاً ولا يعرف أحد أين ذهب أهلها.هكذا ظل يحاول الاتصال بها كل يوم ولكن لم يتلق أي استجابة.

تنقضي أيامه في شدة الوحدة والوحشة فأحياناً يحدو به الشوق إلى قبر أبويه في جنح الليل حيث لا يراه أحد فيكون منفرداً بدموعه وأحزانه ومن جانب بدأت تنحسر صحته يوماً بعد يوم من كثرة الأرق وعدم الاهتمام بالأكل والشرب.

بعد شهر قصد إلى بيت ذارهْ رجاءً أن تعود مع أهلها وتظهر في وجهه آثار الاكتئاب فلما رأى بوابة دارها مفتوحة أسرع نحوها منفعلاً فأصبح ينادي

-:ذاره...ذاره..

خرجت أمها فلما رأته قالت في حدة

-:ماذا تفعل هنا؟

فقال بلباقة ويظهر الأمل في عينيها

-:أتيت ذارهْ فهل هي في البيت؟

-:ليست في البيت

فلما سمع ذلك غاب ذاك الأمل المؤقت فقال

-:أين ذهبت ومتى تعود؟

قالت غاضبة

-:ما لك وذارهْ؟ ألم أقل لك أنها ليست في البيت؟ فاخرج الآن .

فتوجه إلى البوابة إذ رأى جدة ذاره جالسة خارجها وتفكر في أمر ما وقد تخطت السبعين فأسرع إليها يسألها

-:هل تعرفين يا جدتي أين ذاره؟

-:أنت عباس صحيح ؟

-:أجل

-:نعم أعرف

-:تفضلي إذن

-:لا تحزن ولا تدعو لنفسك ضراً فإني أعرف ما كان بينك وبينها

يزداد خفقان عباس ويفقد الحيوية شيئاً فشيئاً فقال

-:ماذا حدث؟

-: زوّجها أبوها قبل شهر من فتى مهندس يعمل خارج البلاد فلا تعود إلا بعد سنة أو سنتين على ما سمعت.

لما سمع عباس هذا بدا وكأن أحدا قد رمى بصخرة إلى فؤاده فانشق مجروحاً وقريحاً وذاك يظهر في عينيه الدامعتين الحمروين واللسان الثقيل الذي لا يكاد يتكلم وأعضائه التي تكاد تخدر كما قد اهتزت عواطفه والتهب كل ما في داخله فلم يعد يتحرك وظل واجماً ولكنه لم يسكب قطرة من الدموع.

بعد أسبوعين من تلك المكالمة.....

عادت ذارهْ بعد سنتين وتظهر في وجهها وجسمها آثار الضرب وسطور سوداء تحت عينيها من حيث يبدو أنها مظلومة ولم يعد ذاك الرونق فيها وهي تتحين زيارة عباس فتدلف إلى بيته وكل خطوة يزداد بها خفقان قلبها.

تدق باب الدار إذ رأت امرأة تفتحه فقالت بعد أن تأملت في ملامح ذارهْ

-:أنت ذارهْ....صحيح؟

-:نعم

-:ومن أنت؟

فقالت ضاحكة

-:تسألين صاحبة الدار من أنت؟...

فبقيت مندهشة بضع ثواني وقالت بصوت خفيف

-:هل أنت زوجة عباس؟

فقالت وهي تضحك

-:لإن كنت زوجة عباس فما؟

فقالت متعجبة متحسرة وتظهر في عينيها حيرة

-:تزوج عباس!...

-:أكنت تتوقعين أنه ينتظر لك؟

فكادت تغمى عليها إذ أسندتها الفتاة إلى الأريكة قائلة

-:ليتني كنت شريكة حياته!

-:ماذا تعني؟

-:أي لست زوجته ولم يتزوج.

-:فمن أنت؟

فأخبرتها.... هي شرين أخت زوج شبنم وقد أعجبها عباس في زفاف أخته وأظهرت إعجابها عنده ولكنه رفض قائلاً

-:لا يمكن

-:لماذا؟

فأخبرها عباس بكل ما كان بينه وبين ذاره فلما سمعتها زاد اهتمامها بعباس واحترامها له فلم تفارقه رفقاً به وظلت تصاحبه إلى.....

فانقطعت شرين ولم تزد...

ظلت تنهل الدموع من ذارة فقالت

-:أين هو الآن؟

فقالت شرين وتلمع الدموع في مقلتيها

-:ينتظرك.!

فأسرعت ذارة نحو غرفة عباس ولما فتحت الباب أدركها حس عجيب يكاد ينخلع به قلبها وهي غرفة تنفرد بشدة الوحشة وتمتلئ زواياها بآهات عباس التي تخترق أذنيها وتملأ فؤادها بالحسرات وعينيها بالعبرات إذ رأت قميصاً أسود تلتصق به رسالة....

"صدقت يا قرة عيني "حبنا أزلي يا عباس وأرواحنا تعارفت وتجانست قبل تعارف الأجسام هكذا خلقنا فلا فائدة في الفرار فإنها تعرف صاحبها وتفر إليها وترجع من غيرها مهما نحاول "فأنا واثق بأنك تعودين إلي وأنا قد اشتقت لك كثيرا وانتظرت إلى أن صار نفَسي ونبضتي سماً وعدواً ...

إليك أيا لمن صميم فؤادي

سنفنى وتبقى ذكريات العهود".

عباس.

..... ❖❖❖❖❖ .....